

المجلد: 08/ العدد 02 ديسمبر (2024)، ص.ص. 151-161

الكتابة السردية موقف من العالم الاستعماري: إضاءات ثقافية في رواية "عباد الشمس" لسحر خليفة

Narrative Writing, A Stance Toward the Colonial World: Cultural Highlights in 'Sunflowers' by Sahar Khalifa

د. شهرزاد توفوتي

s.toufouti@univ-boumerdes.dz

جامعة احمد بوقرة بومرداس

(الجزائر)

تاريخ النشر: 2024/12/02

تاريخ القبول: 2024/09/24

تاريخ الاستلام: 2024/07/03

ملخص:

يشكل موضوع الثورة مفهوما مركزيا يضيء ميادين معرفية شتى، وي طرح أسئلة على مستوى الكتابة والتلقي. الثورة مفهوم إنساني ينتقل بالشعوب من العبودية والضياع إلى الوجود الحر الكريم. إن هذا العالم الاستعماري الذي يقوم على العنف ضد الشعوب وسلب حرياتهما يجب أن يطرد من أراضيها، وهذه الشعوب يجب أن تقود بأفكارها نحو الخلاص من الاضطهاد الاستعماري والعنصري. في هذا السياق لعبت المرأة العربية الفلسطينية دورا فعالا في قضايا مقاومة الاستعمار وقادت بأفكارها عديد الثورات منفضة ضد أشكال الإقصاء في شتى أنواعه. احتضنت الرواية العربية المعاصرة حكايات مقاومة الاستعمار على خلفية ثقافية وتاريخية وانشغلت بإنتاج نمط من الكتابة تلمس أزمنة الوطن المفقود وترسم تفاصيل الجسد المتعب في فضاء يغمره العنف والشتات وهامشية الوجود. يركز اشتغالنا في هذا المقال على تصور مفاده أن الظاهرة السردية ظاهرة ثقافية، ويقودنا هذا الطرح إلى ضرورة التوقف عند الحدود المتاخمة لهذه العلاقة الوثيقة بين الخطاب الروائي بوصفه متخيلا والسياقات الثقافية والتاريخية التي أنتجت. وفقا لهذا التصور أ طرح الإشكالية الآتية: كيف يتجلى خطاب الثورة (خطاب المقاومة) في رواية عباد الشمس للكاتبة الروائية الفلسطينية سحر خليفة في سياق التجربة الاستعمارية الإسرائيلية لأرض فلسطين؟

الكلمات المفتاحية: الشتات، الكتابة، الظاهرة السردية، عباد الشمس، الاضطهاد الاستعماري.

Abstract: Revolution is a key concept lighting up many fields of knowledge and raising questions on writing and reception. Peoples under violence and deprivation of freedoms by the colonial world have leading thoughts to salvation from racist colonial oppression. On this, Palestinian Arab women's ideas against all forms of exclusion played actively in anticolonial resistance. Taking up anticolonial stories, contemporary Arab novel's writing style captures the lost homeland's times and paints details of an exhausted body in a space immersed in violence, diaspora, and marginal existence. As we consider the narrative phenomenon as cultural, a pause is needed to consider the borders between narrative discourse being fictional and the cultural and historical contexts that produced it. Hence, our paper's problem is: How is the discourse of revolution reflected in Sunflowers by the Palestinian novelist Sahar Khalifa within the Israeli colonization of Palestine?

Keywords: Diaspora, Writing, Narrative phenomenon, Sunflowers, Colonial oppression.

مقدمة:

تندرج هذه المقاربة ضمن حقل السرديات الثقافية، تتوحي في ظلها تقصي آليات اشتغال الكتابة الروائية الفلسطينية حول قضايا الهوية والتحرر والشتات وتاريخ الاستعمار العسكري والثقافي، وتؤكد من خلالها على أهمية الخطاب الروائي بوصفه حدثاً ثقافياً يجسّر العلاقة بين الأدب والواقع ويوسع دائرة التواصل بين النصوص ومرجعياتها، فتبدو الحدود الفاصلة بين المتخيّل وصور العالم الخارجي مجرّد مسافة تقاس بمدى براعة الكاتب في التعبير عن رؤيته للعالم، وحسب وجهة نظرنا النقدية لا تتحقق العلاقة بين الكاتب والقارئ إلا من خلال أسئلة تتم صياغتها لبلورة المعنى العميق لوجود الإنسان في صراعه الدائم ضد صور القبح والبشاعة التي تفرضها قوانين جائرة. نحن بحاجة إلى كتابة تنتج وعياً أكثر تجذراً بقضايا العالم والتجارب المعيشية الجمعية في ظل كينونة لا تؤمن بالإقصاء والتهميش معياراً للتفوق والتفديس، ذاتا موجودة من أجل الآخرين وإن اختلفت معهم، ترى في التاريخ حجة لاستمرارها في ظل علاقات اجتماعية تؤمن بجوارية وجهات النظر المختلفة دون أن يحدث الخلاف فشتان بين الاختلاف والخلاف. ينظر القارئ العربي أن ينتصر الكاتب لقضايا الإنسان الذي طوت القيادات الكبرى العالمية إنسانيته، وأن يصغي لأصوات المقموعين والمهمشين وأن ينظر إلى أولئك المتألمين النازحين من أوطانهم.

تهدف هذه المقاربة إلى مساهلة نقد ثقافية للعلاقة الجدلية بين الأنا والآخر في الخطاب الروائي العربي الفلسطيني، وهو خطاب "بتمحور حول تضاد الذات وعدوّها"¹، وما يتخلّل هذه العلاقة وفي سياق هذه العلاقة الثقافية المتشابكة بين العوالم المتنافرة التي أنتجت صور الاستعمار تنبني رؤيتنا النقدية التأويلية لرواية "عباد الشمس" من خلال استنطاق اللغة والتاريخ والمجتمع في فضاء تخييلي أنهكته القوى الاستعمارية الإسرائيلية، ولم يكن هناك خيار سوى أن تحاول الأنا تعويض إخفاقاتها من خلال الاحتكام إلى قوة السرد ومحاوله إنتاج صور وتمثيلات للهوية المفقودة. تطرح الرواية العربية رؤى ثقافية مؤسّسة على فكرة التحرر من الآخر المستبد وتحقيق الاستقلال، إذ يصعب إغفال الخصوصية الثقافية والواقع التاريخي للذات العربية في علاقتها بماضيا وموروثها وبالآخر الحاضر بقوة في حياتها²، وعلاقتها بتاريخ الاضطهاد. ألهمت ظاهرة الاستعمار كتاب الرواية لصوغ تجارب الشعوب والأمم التي سلّبت الإمبراطوريات الكبرى أوطانها وهجرت أهاليها وطمست هوياتها. إنّ الصراع بين الضعيف والقوي أدى إلى القيام بانتفاضة المستعمرات والقيام بالكفاح المسلح.

ساهم الاستعمار في إنتاج سرديات مقاومة من أجل التحرر والمساواة، وأخذت المقاومة أشكالا عدّة وخطابات شتى للتعبير عن مأساة الإنسان العربي الذي استولت عليه الدكتاتوريات المعادية للديمقراطية واحترام حق الشعوب في الاستقلال، في مجال المسرح والرسم والسينما والرواية، وفي هذا السياق نشير إلى روايات: (سأهيك غزالة، التلميذ والدرس...) للروائي الجزائري مالك حداد، و(موسم الهجرة إلى الشمال) للروائي السوداني الطيب صالح، و(رأيت رام الله) للروائي الفلسطيني مريد البرغوثي. قدّمت نصوص هؤلاء الروائيين تمثيلات سردية لفترة زمنية قائمة في تاريخ الإنسانية، تناولتها من خلال أبعاد ومنظورات تدعم حقيقة لا مناص منها هي قدرة "الأدب على التعاطق مع التاريخي/ الاجتماعي دون أن يؤثر ذلك على بقائه أدبا"³.

تضعنا الرواية العربية أمام أسئلة التجريب وما يتيحها من إمكانيات لصياغة جالية ثقافية واسعة مادامت مفتوحة على العالم وعلى تاريخ إنتاجها بتناقضاته، ومسكونة بتجاوزات الماضي تقودها براعة وموهبة الكاتب لابتكار أساليب جديدة للتعبير عن رؤيته الفنية حول الهمّ الإنساني وقضايا المعقدة، ونشير في هذا المقام إلى أن الرواية العربية المعاصرة عرفت تحولا على مستوى البناء والمضمون الفكري بحثا عن صياغة جديدة لخطاب سردي يجيد حوارا معرفيا مع العالم، استجابة للتحوّلات الاجتماعية والتاريخية، تقترح سرديات بديلة تطمح لإعادة النظر في علاقة الذات والآخر في ظل سطوة رؤية ثقافية ونسق فكري ثابت لا يقبل التغيير، خدمة لنزوعها نحو التسلط والاستحواذ على الكلمة والمكان والإنسان وتشويهه تاريخيه.

إن هذا الامتياز الذي تحقّقه الذات لنفسها على حساب الآخر الذي تراه كائنا غريبا، يثير النزعات العرقية ويذكي شرارة الإحساس بفوقية وأفضلية شعوب على حساب شعوب أخرى، يمنح الكاتب الروائي طاقة فكرية لمقاومة هذه الأنساق المضرة التي تختفي تحت عباءة الجمالي، فتتغير زاوية قراءة العالم على أساس فكري يمتلك القدرة على

تقديم تمثيلات ثقافية تفكك الصور النمطية السائدة، وتعيد كتابة التاريخ المنسي فيتجلى أداة تفكيك لخطابات القوة والسلطة في سياق سردي تخيلي.

تعيد الرواية النظر في الترتيبات التي اختلقتها تحيزات العالم الاستعماري ونشوياته الافتراضية، فتتكئ على مجازات اللغة واستعاراتها وتطور أفقها الثقافي مستمدة فاعليته من دينامية السرد وقابلية إنتاج خطابات ثقافية مضادة تقوم على تمثيل عالم متخيل يثير فينا فضول المعرفة والسؤال عن الزمان والمكان والتاريخ والوطن واللغة ودور هذه المقولات بوصفها وسيلة لتحرير الخطاب الروائي من هيمنة نسق على حساب نسق آخر، وفي ظل هذا العلاقة بين ما يكتبه الروائي وما يراه تتحدد قوة السرد في تقويض أشكال المركزية، وإعادة بناء خطاب يستجيب لمعطيات ثقافية تقوّض منطق الحكيم المركزي ويجزّده من زمانيته الموهومة. وفي سبيل تحقيق غاية هذه البحث المتمثلة في التأكيد على قوة السرد التخيلي تقترح ثلاثة مباحث توطر وجهة نظرنا النقدية لمقاربة مفهوم الكتابة السردية عند سحر خليفة.

أولاً/ الثقافة والمقاومة: مجازات السرد الروائي واستراتيجيات التمثيل

ما المدخل التي يتم من خلالها ولوج عوالم المقاومة الثقافية في رواية عباد الشمس؟ نقترح مقارنة الرواية من ثلاثة مداخل: أولاً-فاعلية الرواية في إعادة تخيل الماضي، ثانياً-إتاحة الفرصة للأصوات المهمشة كي تسرد حكايها، ثالثاً-سردية المنفى وحق العودة إلى الوطن الأم فلسطين.

ارتبط اسم سحر خليفة بالقضية الفلسطينية وبالأرض المحتلة وعبادات الشتات والنفي عن الوطن سنة 1948. عاشت سحر بنابلس وعاشت مرارة الاحتلال فكنتت عن جرائمه، وعن مآسي الشعب الفلسطيني وهو يخوض معاركه التاريخية ضدّ الاعتزاز والنفي والاقْتلاع من الأرض، من خلال رحلة عطاء في طويولة في مجال الإبداع الروائي، بدأت مع "لم نعد جوارى لكم" أول رواية لها صدرت عام 1974، تلتها "الصبّار" سنة 1976، ثمّ عباد الشمس ثمّ "مذكرات امرأة غير واقعية"، ثمّ باب الساحة ثمّ "الميراث"، ثمّ "صورة وأيقونة وعهد قديم"، وغيرها من العناوين الروائية الأخرى.

تخرق الرواية عموماً وهي جنس الحرية- بواطن الحياة بكل أطيافها، فتقدّم خطاباً متخيلاً مبنياً على تمثيلات سردية تختزل تجارب إنسانية بصيغة فنية مفعمة بالمعاني التي تنتصر للذات في معركتها ضد الوجود، تستنطق اللامعقول تارة وتارة أخرى توثق الصمت قوة وضعفاً، حباً وكراهية في بانوراما خطابية لا تعترف إلا بسلطة الكتابة في مواجهة الخذلان والإحباط. يتجلى ذلك في هذا المقطع السردية: "ضربت حافة الردهة بقبضتها وزمجت، غلط غلط، أين الشعر؟ أين الشعر؟ أين عالم الأدب الواسع؟ أين الناس وأين تعاسة الإنسانية؟" 4. الكتابة في ظلّ الحقبة الاستعمارية نتاج صفوة المستعمرين تسهم في تنشيط التفكير النقدي وهو يمارس فاعليته في تقليب الظاهرة الاستعمارية عبر تاريخها الطويل.

تنتهي رواية عباد الشمس إلى أدب المقاومة الثقافية الذي يكشف الجانب المظلم والمسكوت عنه للسلطة الإسرائيلية، ويتم ترميز هذا الصراع بين ذوات ممثلة في (عادل الكرّمي) الصحفي المنتصر لقضية السلام يتجلى ذلك من خلال الترحيب بل(خضرون) الرجل الإسرائيلي ذو الأفكار التقدمية، و(ريفيف) الصحفية الثورية التي تؤمن بأن ثورة الوطن تعزّزها حرية المرأة فتأخذ بزمام الأمور وتقود حياتها نحو الخلاص من حب (عادل الكرّمي) ومن كل قيود الزمن الماضي والحاضر، و(سعدية) التي ترفض مقولة الضعف النسائية فتتخطى في التعريف بذاتها فترتقي بصراعها المستميت ضدّ أفكار المجتمع البالية وقوات الاحتلال المؤسسة (السلطة)، ومحاولة الانقلابات من واقعها بعنف المتخيل. تتحدّى الروائية الحواجز الأمنية والأعراف الاجتماعية، فأخذت المرأة العربية عموماً والمرأة الفلسطينية مساحة وافية في رواياتها فترتكبها تدافع عن وجودها ومصيرها باستدعاء علاقات نصية تسعى الانقلابات من المثالية والحلم بالمغامرة التي لا تخشى السقوط.

ما مفهوم المقاومة الثقافية؟

يقول إدوارد سعيد في كتاب الثقافة والإمبريالية "إنّ المنتجات العظيمة للثقافة هي منتجات محسوسة واستثنائية، وبالإشارة إلى الأعمال الجمالية فإنه يمكن لهذه المنتجات أن تكون أعمالاً عظيمة من إبداع الخيال وأن تضمّ في الوقت نفسه وجهات نظر سياسية ظاهرة البشاعة والقيح تبرز شعوباً وأصقاعاً بأسرها خاضعة ودونية" 5.

أخذت مسألة احتلال دولة فلسطين من قبل الإسرائيليين بعدا تأسيسيا خلافا في تفكير سحر خليفة فاستحالت إلى إنشاء عبقرى وسردية يتجاذبها التاريخ بعديه الزماني والمكاني. " إن دور المثقف يتطلب منه إنتاجا فكريا وممارسة عملية... المثقف بهذا المعنى معارض بامتياز يختار طريق مواجهة الطغاة والمنتصرين ولذلك فهو هامشي بالضرورة، مسافر ووحيد، مهاجر وإن عاش في بلاده، يواجه السلطة بالحقيقة ينتصر للضعفاء، يضطلع بالتعبير عنهم وتمثيلهم، يسعى إلى الوصول إلى جمهور واسع عبر المنابر. عباد الشمس الهَمّ الفلسطيني متخيل سردي اقتحمت الروائية فضاءاته من خلال حياة الحارات في مدينة نابلس فاستوقفتها الفطرة الإنسانية بضجيجها وعفويتها، " امرأة تحمل سلة مليئة بالخضار. قرنيط وسباخ وربطة فجل أحمر. رجل دين إشرأبت سوالفه حين اصدمت قدماه بالأرض، شاب وفتاة متخاصران يتأملان الشرق بفضول ونسلية. صبي في العاشرة يقفز من باص لآخر ويده أيكاس ترمس يصرخ بأعلى صوته: " ترموس". بعض الباعة، كعك وبيض وزعتر، حلاوة سمسم، وفرش يحطّ عليه الذباب فلا تعرف نوعه. وأناس يروحون وآخرون يجيئون، وفي أوّل الشارع راهبة تجر عنقود أيتام يمشون بصف العساكر المهزومة"⁶.

تحصنت سحر خليفة بالكتابة الروائية فظلت مشغولة بأسئلة الماضي والحاضر موزّعة بين عالين تتعدّد فيه الأصوات وتتداخل وتتقاطع. تعددت المواقف في كتابات سحر الروائية بين الرفض والقبول وبين الحبية والأمل وبين الحضور والغياب وبين القوة والاستسلام على خلفية من الوعي المزدوج بقيمة الذات وموروثها، والأزمة الطاحنة لهذه الذات وهي تخوض غمار حرب متعددة الأبعاد يصنع أقطابها: المجتمع بشجونه المعقّدة، والتاريخ بخصوصيته المتواشجة مع الحاضر المضطرب.

تناولت "عباد الشمس" قضايا عديدة من الحياة في فلسطين، وبالضبط في مدينة نابلس، حيث تحيا (سعدية) أرملة (زهدي) الذي توفي وترك لها عبء تربية الأطفال وإطعامهم، تظل (سعدية) تكدح لكسب قوت أطفالها من خلال مهنة خياطة الأقمصة التي يأتيها (شحادا)، ثم تنقلها إلى تل أبيب لبيعها. تضيق (سعدية) ذرعا بنساء الحارة اللاتي تتجسسن عليها فيطلقن عليها سموم الشكّ في سلوكها العفوي فتحلم بمغادرة الحارة نحو بيت بالجليل، لكن ابنها (رشاد) يرفض فكرة مغادرة المكان الذي نشأ فيه.

تضعنا عباد الشمس منذ العتبة النصية الأولى في مواجهة مع عوالم متنوعة، وشخصيات ذات توجهات فكرية مختلفة تفتح معها موضوعات متداخلة تركت لها حرية التعبير عن أحلامها والآمها وخيبتها، فكانت كلّ شخصية تمثل سردية هي إحدى صور براعة الكاتبة في إنشاء خطاب مضاد يتغلغل في عمق الأزمة العربية التي تواجه أزمة قائمة سببها تأثير الاختلاف الثقافي والعقائدي، غنّتها العنصرية المتأججة من قبل المركزية الأوروبية ضدّ كل ما هو غير أوروبي لغايات إيديولوجية تنتصر لفكرة عزل الشرق وتسفيهه والسعي المتواصل للقضاء على هويته في حضن المؤسسة الكولونيالية الراعية لغاياتها.

وضعت عباد الشمس القارئ أمام "مجمع سردي مواز للواقع، لأنّ مقتضيات الخطاب السردى لا تقوم على الدقة، بل تتوارى الأحداث الحقيقية وراء المجازات والرموز لعلها تكون أحداثا متخيّلة، ما يجعل السرد تمثيلا لصور ذهنية عن الأخلاق والتحيّزات والحيّزات"⁷. وهي تعطي معنى مضوّرا للعالم، فتح نوافذ الرواية على المجتمع الفلسطيني بكل طبقاته، حيث بإمكان القارئ أن يدخل حارات مدينة نابلس ويصغي إلى أصوات الباعة في الطرقات، فاليوبي منبع لأسرار الواقع وبوابة لفتح السجلات المنسية عن قصد، فتتجنّب الهلاك والموت بقوة السرد تؤكّد به الذات اختلافاتها مع صور الآخر، اختلافا يأخذ أثمانا متعدّدة من العلاقات، وفق علاقات القوة بين الأطراف، حيث تدخل استراتيجية كل طرف في مواجهة خطابية مع استراتيجية الآخر"⁸، وفي هذ السياق الحوارى تضعنا الرواية أمام حالة ذعر أطبق على أهل الحارة بسبب "أمر من الحاكم العسكري كلّ ذكّر من سنّ الثالثة عشرة وما فوق مُطالب بالذهاب إلى ساحة المدرسة"⁹، تصرخ سعدية وتبحث عن ابنها (رشاد) فوق الطرقات المتريّة تركض أقدام النسوة، تفتح أبواب الجند، تتلقّى سعدية صغعة أولى وثانية من قبل الجندي الإسرائيلي تزيدها قوة فلا تستسلم للألم، ترفسه بين رجليه بكلّ الحقد وتصيح اضربوه بالحجارة، وبدأت سعدية تضرب والنسوة تضرب حجارة وحصى وتراب ومقاليع، لمحت سعدية رشاد يضرب من فتحة المقلّعة، واختبأ بعض الجند، وحوصر آخرون وهم فوق الأسوار، حجر أصاب أحدهم فهورى،

رصاص، حجارة، اشتعل الدم في الجبهة. اجتاحت النسوة حماس عنيد¹⁰. لم تنصع سعدية لأوامر الجنود الإسرائيليين ولم تخفها الضربات الموجعة، لأن وجعها كثيف وعميق فهي الأملة المسؤولة على أطفالها، وهي المرأة الفلسطينية الراضة لاحتلال أرض فلسطين وطنها المغتصب والجريح منذ 1949.

تستعين سحر خليفة بالسرد لمواجهة هذا الوضع الذي تفرض فيه السلطة حالة الإسكات على أهل القرية من خلال الاعتقال، والقمع، والضرب والتصفية الجسدية، فيستحيل السرد قوة دافعة للكتابة ومحاولة استرجاع القوة من الضعف الجسدي المنهوك، حيث تقاوم سعدية جسارة السلاح بمكون عاطفي مزوج بعاطفة الأمومة من جهة، ومن جهة أخرى حُب الأرض ورفض تسليم الابن رشاد، الذي يمثل رمز الوجود الفلسطيني. تخضر السلطة في صورة الجنود الإسرائيليين المدججين بالسلاح يحاولون بسط هيمنتهم على سكان القرية، وفي هذا السياق الكولونيالي "يقوم السرد بتسريح جسد السلطة حيث يتواجه صوت السلطة بأصوات صحاهاها. في مقابل سردية السلطة التي تفرض تاريخاً أحاديًا للحدث، بوصفه التاريخ الحقيقي، تاريخ الأمة المقدس، يُنتج السرد الروائي باعتماد أسلوب إعادة الكتابة سرداً انتباهياً، ينبثق على هامش حكاية السلطة"¹¹.

تزرع عباد الشمس بدلالات هي مزيج من تشكيل جمالي/ثقافي صاغت من خلاله تجربة الذات المستعمرة والآخر المستعمر. كيف يسهم السرد الروائي في إحياء تاريخ فلسطين الأرض المحتلة في سياق الاستعمار الإسرائيلي؟ يرى إدوارد أن "القصص تغدو الوسيلة التي تستخدمها الشعوب المستعمرة لتأكيد هويتها الخاصة ووجود تاريخها الخاص. لا شك أنّ المعركة الرئيسة في العملية الإمبريالية تدور من أجل الأرض، لكن حين آل الأمر إلى مسألة من كان يملك الأرض ويملك حقّ استيطانها والعمل عليها، ومن ضمن استمرارها وبقائها ومن استعادها ومن يرسم الآن مستقبلها، فإنّ هذه القضايا قد انعكست، ودار حولها الجدل، بل حسمت أيضاً زمن ما، في السرد الروائي"¹².

حسب منظور إدوارد سعيد فإنّ الأمم تستردّ قوتها من خلال ممارسة السرد، فالشعوب المضطهدة لها انتماآت تاريخية واجتماعية ولغوية هي دليل وجودي لها، تعمل القوى الكولونيالية على طمسها بشتى وسائل العنف والاضطهاد والمطاردات، ولتدعيم هذا المأرب الكولونيالي القائم على سياسة الاستحواذ على الأرض وكذا القضاء على الكيان الاجتماعي فيها، تُنتج استراتيجيات على مستوى التخيل الروائي تعزز هذه الرؤى الإمبريالية، حيث "يشتبك الخيال بالإيديولوجيا الإمبريالية حول الاستيطان"¹³، فنتج سردية كبرى مفعمة بالصور المعززة لوجوده ملامى بتصور شمولي استعملاي يقضي كلّ محاولات استرجاع الحرية واسترداد الحقوق المهضومة الواقعة تحت سيطرته. إثر هذا الصراع المتأجج تنشأ سرديات صغرى ترفض الخضوع لهيمنة المركز، فتدافع عن هويتها ولغتها وتاريخها، وتسعى للتحرر من رقة السلطة فتستعين بالكتابة السردية بوصفها أحد أشكال المقاومة بالثقافية، التي أشار إليها إدوارد سعيد في سياق حديثه عن علاقات القوة والمعرفة، يقول: وإنّ القوة على ممارسة السرد، أو على منع سرديات أخرى من أن تتكون أو تبرع، لكبيرة الأهمية بالنسبة للثقافة والإمبريالية، وهي تشكل إحدى الروابط الرئيسة بينهما. والأكثر أهمية هو أن السرديات الجليبة الكبرى قد جدت الشعوب في العالم المستعمر وحفرت على الانتفاض وخلع نير الإمبريالية"¹⁴.

عندما يتحوّل الواقع إلى فن فتلك مهمة الخيال من خلال الكتابة التي تقوم بإعادة خلق جديد لمكونات العالم، فثبتت الصور المألوفة في شكل تمثيلات سردية تعيد ترتيب العالم في سياق متصارع من القيم الثقافية، تحفظها الذاكرة الجمعية للشعوب.

"لا ثورة عظيمة دون ألم عظيم"¹⁵، هكذا اختزلت (رفيف) أزمة الفلسطيني. كم هي ثقيلة تلك المسؤولية التي أودعتها سحر لشخصياتها: عادل الكرمني الصحفي، وسعدية أرملة زهدي، وصالح، وأبو العز، ورشاد، وغيرهم من الفلسطينيين المرابطين في الضفة والقطاع ممن أثقلتهم الحياة تحت نير الاستعمار "الوقت زفت أوضاعهم الاقتصادية من سيء لأسوء وليرتبهم ولا اللي في رجلك. كذا مصنع أفلس وكذا شركة، وعملنا جار عليهم الزمان وربك، ولا الضفة تقدر تكفيهم ولا إسرائيل، يحمل الواحد شمشيره ويشترق شرقاً بعدما كان يغرب غرباً. وتلقاهم راحلين بالألوف. ناس للأردن وناس للسعودية وناس للعراق وغيرها وغيرها... حتى الميتة في أرضك حلال للغريب وحرام عليك. تصوّر ممنوع تشرب وترتوي وحلال لغريب برك السباحة. قالوا لنا ممنوع تحفروا آبار، قلنا ليش، قالوا لأنكم إذا حفرتم في طولكرم تسحبوا الميتة من تحت إسرائيل، قلنا الله أكبر البلد بلدنا والأرض أرضنا والميتة ميتنا، قالوا ممنوع"¹⁶.

تتوثق دلالة العلاقة بين (الأمة) و(السردي) في عباد الشمس بشكل يدعو لتأمل مفهوم النفي والتشتت والابتعاد عن الوطن الأم، حيث تسلط الكاتبة الضوء على خروج الفلسطينيين من أرضهم بسبب عدم القدرة على العيش فيها بسبب تردّي الحالة الاقتصادية التي سببها الاستعمار الإسرائيلي. ثم يزداد الوضع قتامة حين يتم تمثيل الآخر من خلال تصوير المستوطن الإسرائيلي بقوة حضوره وهيمته أفعاله الشنيعة ضدّ المواطن الفلسطيني الأصلي الذي يحرم من حقّه في شرب الماء والارتواء في فعل السردي، وفي الوقت نفسه يتم إسكات صوته فلا يسمح له بالتعبير عن حقّه في حفر بئر للتزود بالماء.

يلعب السرد دوراً مهماً في تفكيك خطاب المستعمر من خلال إنشاء صور متخيّلة منحتها الكاتبة للذات المهتمشة التي تعاني من مركزية الآخر المستبد، حيث يتم الاتكاء على سرد أحداث تمنح الذات قوة واستمراراً وحضوراً على الرغم من سياسة التهجير والنفي والاقتلاع من المكان الذي يحيل إلى هوية تاريخية واجتماعية وثقافية يعمل المركز الاستعماري على القضاء عليها. وفي هذا المقام يتم استدعاء التاريخ لتعزيب قوة السردي مقابل قوة السلاح، تعزّز به الذات التحامها بالمكان على الرغم من حالة النفي الذي فرض عليها "البلد بلدنا والأرض أرضنا والمية ميتها، قالوا ممنوع". يلعب السرد المضاد الذي ينتج ككتاب الأوطان المنبوذة اجتماعياً وسياسياً وتاريخياً، دوراً في توثيق الذاكرة وتخيل التاريخ مقابل سياسات القمع والإسكات التي تمارسها قوى الإمبرالية في العالم، وعلى الشعب الفلسطيني، فكان ذلك سبباً في إنتاج صور سردية هي بمثابة خطاب أدبي يتخذ من الرواية صوتاً لمأساة الإنسان المطارد. هي حكاية كل فلسطيني و"صوته الذي تسعى السردية الإسرائيلية إلى خنقه ومحاصرته.

ثانياً/ المرأة الفلسطينية: حين يسترجع الهامش صوته

يطرح موضوع الكتابة النسائية إشكالات عديدة تتعلق بخطاب هوياتي ثقافي متعدد، فالمرأة عندما تكتب تصطدم بكتب داخلي بنشكّل من خلال تصنيف الآخر لها في خانة الدونية. وفي هذا السياق تطرح التساؤلات الآتية: عندما تكتب المرأة عن المرأة ما الذي يميّز خطابها الروائي؟ هل استطاعت سحر خليفة أن تنتصر للمرأة العربية وللمرأة الفلسطينية من خلال اتخاذ الكتابة شكلاً من أشكال المقاومة الثقافية؟

ينفتح وعي المرأة لطاقتها وإمكاناتها من خلال رواية عباد الشمس، ففرض مقولة الضعف النسائية، وتنخرط في المقاومة وتمتد الروح الثورية إلى حياتها التي تقلب المفاهيم الاجتماعية ولا ينحصر مسارها في الخط السياسي فقط، وتصبح مشاركة المرأة في توثيق واقعها الاجتماعي جزءاً لا يتجزأ من مقاومة الاحتلال في الأراضي الفلسطينية.

تنطوي عباد الشمس على دلالة عميقة لموضوع المرأة، حيث تحضر من خلال تمثيلات ثقافية عديدة: كاتبة صحفية تمثّلها شخصية (ريف)، وزوجة أرملة تمثّلها شخصية (سعدية)، وفتاة شابة تنتظر عودة خطيبها من السجن تمثّلها شخصية (نوار). ممّا تعددت أشكال التمثيل إلا أنّ الأمر "يتعلّق بطرح إشكالية علاقة المرأة بالكتابة وآليات اكتساب هوية ثقافية وفكرية، تساهم بها ومن خلالها في فعل الكتابة من أجل التغيير، تغيير الجامد والسكان والمهادن سياسياً واجتماعياً وفكرياً، وتوعية الآخر بكتابة مختلفة غير ممهّدة، تنحو نحو المشاركة في تحليل الواقع وقراءته"¹⁷.

تحضر السلطة الذكورية مرتبطة بأزمة الوطن الجريح، تصوّرها خليفة في شكل مواجهة جريئة ضدّ أشكال التخويف والعبودية، فيتم الاستعانة بشخصية "ريف" تعمل كاتبة صحفية في مجلة، تمتلك وعياً بمشكلات الوطن المحتل والمجتمع الذي أفرز أفكاراً بالية ضدّ المرأة، ووعياً ثورياً ضدّ العقلية المتحجّرة للرجل. تؤمن ريف بقدرتها على مواجهة الواقع، وأنها جزء من المجتمع، "الثورة لن تحلّ مأساة الشعب وهؤلاء هم القادة... وأنا نصف الشعب، أنا المرأة، أنا النموذج الذي يمارس عليه عادل تطبيق النظرية. يعجز عن فهم واقعي ومواجهة متطلباته، فهو عاجز"¹⁸. يبدو أن سحر خليفة تغلّغت في دهاليز ريف النفسية والفكرية، وهذا ليس جديداً على مستوى الكتابة لديها وعلى مستوى اختيار الشخصيات التي انتقته من الواقع، فهي شخصيات ثرثرة، ومكافئة، وخجولة، وقوية، وضعيفة، وصبورة، وخائنة، وثورية، جاءت بها سحر خليفة لتعيش الفكرة المتخيّلة.

تطرح عباد الشمس فكراً تحرياً يسعى إلى التخلص من المركزية الذكورية، مبنياً على مفهوم الاختلاف بين ما تؤمن به (ريف)، وما يؤمن به (عادل الكرّمي) الصحفي الذي تحبه وتريده للزواج، تعجبه ويشتهيها ويطلبها بشيء آخر، تقول ريف: "يطالبني أن أكون وقوداً للثورة البردانة، وأن أكون وقوداً لبروده، وأن أكون وقوداً لرأسه البارد..."

لماذا يتوجب عليّ أن أقدم صكا للعبودية"¹⁹. تقدّم الكاتبة بدائل تفكيكية على مستوى التمثيل السردى، حيث تنطلق من أهمية الوعي بالآخر المختلف فنضع (رفيف) المرأة التي تريد أن تكون قائدة تصنع ضوءها بنفسها، تسير معه كندّ وليس تابعا، في مواجهة مع الرجل الذي لا يوافقها أفكارها ويستهيئ بثورتها: "ثورتها ليست إلا قشرة، وهو كذلك كم من الفشور لديه"²⁰. تصرخ رفيف عندما ترى (خضرون) اليساري الإسرائيلي بصحبة (عادل الكرمي) الذي يعمل صحفيا بالمجلة، وتتأسّف من الخذلان الذي تعيشه: "وصلوك يا خضرون قبل أن يصلوني. آمنوا بك قبل الإيمان بي. يحاولون الوصول إلى شارعك قبل الوصول إلى دهاليزي... لو أنّك تعرف يا خضرون ماذا يقولون لك هنا؟ مساواة الشعوب ومساواة الأجناس ومساواة المرأة، ويقولون لك الشعب وأنا نصفه. فهل قالوا لك عن النصف المعتم"²¹.

على الرغم من إجحاف المجتمع في حق المرأة من خلال عدم انصافها، إلا أن السرد أنصفها وكشكق النيات الثقافية المضمره للخطاب الذكوري الذي يتوارى خلف الشعارات المزيفة. أحدثت الكاتبة تقويضا على مستوى الممارسات التي يقودها المركز ممثلا في شخصية (عادل الكرمي). أسفر هذا التقويض عن إنشاء سردية مواجهة دفعت بها سحر خليفة المرأة لاستعادة صوتها. تقول رفيف وهي تردّ في زاوية المرأة على الرسائل: "ابتعدي عنه انسيه أعيدي اعتبارك لنفسك وانشغلي عنه بما هو أقوى... كانوا يبدونها لكن يحقّ لها أن تُدير باب الحيمة فتصبح حرّة"²².

ينشق الصوت المتمعن من غيابات عالم بشع تقوده الأفكار البالية فتحقّز السرد على تدمير خطية ورتابة الرقيب وفوضاه نابعة من فضاء مجتمع يقيس العالم برؤية ضيقة، تعبّر عنه سحر خليفة بوصفه "مأزق عالم بشع محكوم بحتمية السلطة"²³. وفي هذا السياق تتفنن الروائية في تقديم قراءة بديلة عن وضع المرأة التي يزداد وعيها بذاتها وبحريتها بازدياد ثقافتها فتزداد ثراء ثوريا ضدّ أفكار ومعتقدات الماضي البليد، إنّنا أمام كتابة مضادة أحد مكاسب مثقف المستعمرات يجار بصوته وينتج خطابه وتمثيله الذاتي في زمن الختية الذي تستعيد الذات فيه صورتها أي هويتها المتلاشية²⁴.

تغوص بنا سحر خليفة في دهاليز عالم امرأة أخرى ليست لها زاوية في مجلّة، إنّها (سعدية) أرملة (زهدي) " في صوتها صلابة توحى بثقة كبيرة بالنفس... امرأة قوية باستطاعتها أن تتحدّى ظروفها وظروف البيئة. وتقف على قدمين ثابتتين ولا تهتز²⁵. تشعر سعدية بتقل مسؤولية الأطفال بعد موت زوجها. تشتغل (سعدية) بخياطة القمصان التي يأتي بها (شحاد)، تنتقل لبيعها بتل أيب. لا تسلم (سعدية) من ألسنة (أم صابر) وبقية نساء الحارة، يهتمها في شرفها، تقول أم صابر في حديثها مع (أم عادل): "تعمل العمايل وترخي الشايل، واحد طالع وواحد نازل وتقول من خير الله والمالكينة. الله الله يا مالكينة سعدية، الله الله"²⁶. تواصل (سعدية) ثورتها ضد جوع أطفالها، وثورتها ضدّ ألسنة الحارة التي تشك في سلوكها، وثورتها ضدّ الاحتلال عندما تحدث اشتباكات مع الجنود الإسرائيليين في محاولاتهم المستمرة لضرب واعتقال الأطفال وأخذهم إلى السجن ومنهم ابنا (رشاد) فالاحتلال لا يرحم الصغار ولا الكبار، فتصاب بذعر شديد خوفا على ابنا فتصوّب ضربات موجعة لأحد الجنود وتتحدّى رصاصه وجبروته من جهة، ثم تدفع بابنها (رشاد) ليصوب ضرباته بالمقلية وشظايا الزجاج والحجارة.

ترصد الرواية صورة (نوار) أخت (عادل الكرمي) تعيش على أمل اللقاء بخطيبها (صالح) الذي سجّنه الاحتلال، "حضرت نوار ووقفت خلف النافذة المسيجة، كانت الأصوات ضجيحا الزوار والأطفال.. في عينها تلك النظرة وفي خديها حمة شفق. مدّ أصابعه من خلال السبك المعدني. أمسكت أصابعه تتحسّسها وتداعبها... أخرجت من جيبيها حبات لوز أخضر قد مرّت بها رغم التفتيش وهمست وهي تتلقّت حولها: أحضرت لك لوزا أخضر. وضحكا واقتربا بوجهيهما من الشباك. اصطدمت جبهتها بجبهته ولكن المعدن وقف حاجزا بينها وبينه"²⁷. تعيش (نوار) تفاصيل هذا الحب الذي أطبقت عليه زنزانه العدو وكلّ يوم يكبر هذا الحب وتكرّمه معه مساحة الحزن بقدر سنوات البعد التي فرضها السجن. يبقى هذا الحب مسجوناً لا يتجاوز السبك المعدني، ولا يمكن أن يتحقق اللقاء بين (نوار) و(صالح) البطل الثوري خارج أسوار السجن. يختزن السرد أزمة الذات التي لا يمكنها أن تتجاوز أزمتهما ما دام المركز الإسرائيلي مستحوذا على الهامش ومسيطر على مصيره، فتتولد سردية حب يداهن أعين الرقيب. من وجهة نظر ثقافية فهذه الهجمة الإسرائيلية تتولد عنها كتابة ما بعد الاستعمار وتتخذ من صورة الهجمة أمودجا لفضح سياسات القوة والقمع الممارس على الشعب الفلسطيني الذي يتمّ الزج به في زنانات العدو ومصادرة حقّه في العيش بحرية والوقوف عاتقا يحول دون إنجاز مشاريعه الاجتماعية كالزواج.

اختلفت صور النساء التي قدمتها سحر خليفة في عباد الشمس إلا أنها تمثل سردية للمرأة المقاومة المتشبثة بمبادئها في محاولة منها أن تسترد صوتها وكرامتها في ظل وطن محتل، فعلى الرغم من استحالة تحقيق هذه الذات مآربها فعليا فهي تستعين ببديل ثقافي يستمد منه الهامش قوته ويصبح مصدرا للطاقة الإبداعية، يقوض الأعياب المركز ويخلخل موازينه عبر قراءة واصفة وواعية لها إمكانات خطائية غير محدودة تقاوم في سبيل استرجاع صورها وهوياتها المشوهة.

ثالثا/ فلسطين، الأرض، والذاكرة: سردية الوطن المتخيل

يرى النقاد العراقي عبد الله إبراهيم أن السرد يمتلك قوة معرفية ورمزية في مواجهة خطر المركبات ومنها المركزية الغربية والتجربة الاستعمارية التي تجلو عن صور زائفة عن الذات والاعتصام بها وتزوير حقائق التاريخ. فقد أقام الفكر الغربي الاستعماري تعارضا بين المجتمعات وموجبه فُرِضت فكرة السمو الغربي في العالم وترتبت علاقات الغربي في ضوء علاقة المتبوع بالتابع، تعني التبعية تفوق طرف على طرف آخر. وينبغي الاعتراف بأن الاستعمار الغربي انتصر في تفكيك الشبكة الرمزية من المعاني والتخيلات والأخلاقيات للجمعات الأصلية وأحلّ معها بالقوة العسكرية أو السياسية أو الاقتصادية أو بالتعليم الاستعماري، شبكة مختلفة من المعاني حملها وصمت المجتمعات الأصلية بالهمجية²⁸.

استنادا لهذا المنظور الذي تشكلت في إطاره علاقات القوة والضعف، وبالتوغل في قلب الكتابات الروائية أدرك الكتاب العرب المعاصرين الخطر الذي يهدد تاريخ وهوية ولغة شعوب المستعمرات، حيث يتم اختزال هوياتهم في إطار صور نمطية مشوهة للآخر تقوم على أساس الأيديولوجيا الواحدة تحرص على بعدها التاريخي الصافي، في حين تجعل الآخر يعيش هوية متشظية قلقة.

ينبغي الالتفات إلى علاقة السرد بالتاريخ في الخطاب الروائي المعاصر، حيث لا يزال تأثير تاريخي 1948، و1967 الدلالة الكبرى في مغزى انكسارات أجمع العربي وما أحدثاه من شتات بالنسبة للبلدان العربية عموما والفلسطينيين خاصة. يُجمل هذان التاريخان إلى حقبة تاريخية فاعلة في الخيال الروائي العربي²⁹.

**أكد إدوارد سعيد على التلاحم بين التاريخ والسرد، وتشابك الخيالة بالتاريخ، بل نفى إمكانية تحديد الواقع خارج إطار التخيل، والتاريخ خارج إطار السرد، يقول: "السرد في السياق الجديد هو تشكيل عالم متأسك متخيل تحاك ضمنه صور الذات عن ماضيها، وتندغم فيه أهواء وتحيزات وافتراضات تكتسب طبيعة البدييات... ومن هذا الخليط العجيب تنسج حكاية هي حكاية تاريخ الذات لنفسها وللعالم"³⁰.

إن تحديد هوية العدو لا تتكئ على الماضي، وإنما متكوها الإنسان في تقاطعات الماضي والحاضر، فالثورة على العدو ثقافيا تغدو خطابا مفعلا بالتمثيلات التي تختبر صور الشتات في متخيل سردي، يحاول أن يقترب من نبض التفكير ورؤية الأشياء، "فكل روائي يصطنع عالمه المتخيل تبعاً لتجربته الخاصة"³¹، ومع ذلك فأنا مؤمن بأن هنالك ما زال الكثير من التجارب، ولكنها تحتاج إلى المتخيل أو للفن كي تتحول إلى وجود، وأعني اللغة، الخطاب، فنحن غير موجودين كما يقول ميشيل فوكو فقط هنالك اللغة، ومن هنا تكمن محاولتي -ربما الجديدة- في رفد الذاكرة الفلسطينية بتجربة المتخيل (الشتات) ضمن تكوينات الخطاب،

تؤكد سحر خليفة على مسألة حب الوطن والتشبث بالأرض في رواية عباد الشمس. تخيل الأمكنة التي تحتضن أحداث روايتها إلى عالم يبحث عن الخلاص من أزمة الاحتلال الذي بسط نفوذه وأقر قوانينه، حتى صار العالم سمنا متعددا، يقول (عادل الكرمي) في رده على أخته (نوار) عندما أشارت إليه بعدم إمكانية الخروج من باب الدار نظرا لإعلان سلطة الاحتلال منع التجول وبداية حملات التفتيش: "السجن دائما السجن، إذا خرجت للشارع فالسجن بانتظارك. وإذا بقيت بالمنزل فالسجن بانتظارك. وهناك ما بعد الجسر سجن ضخم سجن كبير، أحكام عسكرية وزعماء مؤلهون كانوا منك وصاروا عليك والويل لك كفرود والويل لك كشعب"³². يكبر جرح الوطن عندما يغدو أسيرا في قبضة الاحتلال، ويأخذ الوطن ملامح عديدة حيث يتنازل عن معاني الألفة والحمية والاحتواء والدفء ويصبح في ظل وجود آخر مستعير ومتربص، باعثا لمعاني الاعتزاز والحصار والطرود والخوف "بدأ الركض، تدافع الناس وفتروا كدجاج تعرض لهجمة، وأعلق التجار حوانيتهم وهرولوا ببنطلوناتهم الواسعة نحو منازلهم دون أن يشترتوا خبز الأولاد

وصاح صبي يقف على برميل صديء: وحملت رشاشي ١١١١١١١١ لتحمل بعدنا الأجيال منجل. وخلال لحظات كان الشارع قد خلا من جوقة الأولاد يتقاذفون كالعفاريت وكل يحمل على الكتف خشبة ويمشي بخطوات العساكر... وجدوا أنفسهم في سيارة الجيش محاطين بوجوه ضخمة وتأمل كل واحد علامات الرضوض وآثار الأصابع على وجوه رفيقه وتحسس خده. حاول أحدهم الهرب فتلقت الضرب حتى نرف. وبكى أحد الأولاد..³³

تستحضر الكاتبة الوطن في شكل جسد مصلوب تحت سياط الاحتلال الذي لا يتوقف عن تشويه ملامح الطفولة وتخويفها. يبكي الوطن ويضع خلف القضبان وصار حكاية حزينة. تؤكد سحر خليفة دور التخيل الروائي في كتابة تاريخ القمع اليومي الممارس على أجساد الأطفال، حيث يكشف السرد الجانب السادي والوحشي للسلطة وهي تعتدي على الطفولة البريئة، لتأكيد بشاعة عالم السلطة "في سيرورته التدميرية للفرد... ضمن سياقات ذاتية واجتماعية وتاريخية معقدة"³⁴.

سافرت سحر خليفة بفلسطين إلى القلوب ليدرك العالم أبعاد مأساتها، من خلال إيمانها القوي بفاعلية الكتابة المتخيلة فخطاب الكاتبة يعتمد على استغلال إمكانات السرد المنبثقة من رحم الأزمة في سياق غير منفصل عن تاريخ الأرض المسلوقة، فتنشأ سردية تقع بين المسافة بين الحلم والحقيقة، وبين الحرية والاعتناق، وبين الصمت والكلام، فإذا تمت مصادرة الأرض "باكتساح الفضاء الجغرافي للعالم الآخر واستعاره وامتصاصه"³⁵ لا يمكن مصادرة حياة الكلمة.

اشترت (سعدية) أرضاً ومشت بين أحجارها وصخورها صارت هذه الأرض أرضها، وأرض زهدي، لونها أحمر ملونة بدمه. زفت الخبر لأولادها وقلها يكاد يطير فرحاً "اشترينا الأرض يا أولاد، فيها زيتون وفيها شمس وفيها هوا، مزرع خضرتنا ونربي الصيغان ونبعد عن الحارة والهلم ولسانات الناس. هلل الأولاد وصفقوا أما رشاد فقد ألقى على مصطبة النافذة يبكي صاح الولد نجاة: حارتنا بمة، حارتنا بمة روي أنت وأولادك أنا مش رايح ولو أدور شحاد على بيوت الجيران"³⁶.

لا يزال حلم الأرض يراود الفلسطيني حتى آخر نفس من حياته لكن تداعيات الحرب تحول دون تحقيق هذا الحلم لأن السلطة الإسرائيلية تجرت المستوطنة "فانطلقت عبارات نارية واندفع في إثرها الجنود يحومون في أنحاء القرية. ركلوا هذه وصفقوا ذاك وأمسكوا برجل يحمل كيساً ورقياً مليئاً بالبندورة والخيار أشبعوه ضرباً حتى تمزقت عضلاته"³⁷.

تسجل عباد الشمس حكاية التشبث بالأرض فلم تكن سعدية سوى رمزا للذاكرة الجمعية وتاريخاً تتوارثه الأجيال من الأمم والشعوب المناهضة للإبادة.

خاتمة:

إن خطاباً روائياً على هذه الدرجة من الالتزام بقضية الثورة والمقاومة هو سجل يختبر صمود التاريخ في وجه الآخر المستعمر الذي يقيم الحواجز بينه وبين العالم. انتهجت سحر خليفة سياسة الرد بالكتابة ليكون فعل الكتابة بديلاً عن الوطن المفقود، وفي الوقت نفسه تشكيلاً لوطن متخيل، لمن لا يملك وطناً ومكاناً للعيش فكتابة المنفى كتابة تصل المكان بالهوية، والأرض بالثقافة والتاريخ واللغة بالوجود، تنصهر في بوتقتها التجربة الإنسانية والجمالية، وتواجه الذات المبعدة مصيرها في عالم متخيل بلا جغرافيا وبلا تاريخ تبحث عن حريتها في فضاء سردي له خصوصيته.

يستحيل الانزياح التاريخي للمنفين والمستعمرين إلى استراتيجية قراءة تتم من خلالها إدراك الرؤى التاريخية والإنسانية التي تخترق الحدود الفاصلة بين الأنا والآخر، وتفتح آفاق التمثيلات السردية في بعدها المزدوج الجمالي والثقافي.

لم تكن (عباد الشمس) رواية تاريخ أو تاريخ رواية بقدر ماهي خيط متين يصل بين الغياب والحضور بين الماضي والحاضر، والحقيقة والزيف، وهي أيضاً عنواناً لكل نضالٍ من أجل الكرامة والعدل، وعنواناً لكل فكرٍ نقديٍّ إنسانيٍّ ينشد عالماً بديلاً أثناء سعيه إلى الاعتناق من الأشر.

استعانت سحر خليفة بالشارع العربي والحارة العربية ليس مفهوماً للمباعة المتجولين أو المتسولين، وإنما الشارع والحارة بوصفها مكوناً ثقافياً ارتبطاً بمفهوم وجودي يحيل للإنسان الفلسطيني الذي اتخذ من هذه الأمكنة فضاءً للمساجلات السياسية والحوارات التي قد تسعفه لحل معضلاته الاجتماعية والاقتصادية، فينصهر المكان في الزمان

مشكلا كرونوتوبات عديدة أهمها كرونوتوب الاستعمار والمقاومة الثقافية، تشكل أسئلته اليومية التحاما قويا بما يؤمن به من قناعات تثبت أحقية بوطنه فلسطين. فتنبثق من حكايته التي يفضل أن يرويها للأجيال بلهجته الفلسطينية ذاكرة مأخوذة بجالية إيقاعها الضارب في تاريخ المقاومة. تتابع فصولها في شكل سلسلة تبحث عن إجابة لأسئلتها: كم يجب على الفلسطيني أن يدفع الثمن في سبيل أن تشبع الإمبراطوريات الكبرى هوسها للقضاء على العرق العربي ومسخه، إرضاء لأنانيتها، وهذا ما أشارت إليه تمثيلات الكتابة حيث فتحت صفحات تاريخ المجازر التي قادتها جيوش الاستعمار الإسرائيلي وجعلتها مرجعا لخطابها الروائي، فاستحضار التاريخ في الرواية يغني التجربة الإبداعية على مستوى المتخيل السردى لما تحمله من أشكال ورموز، يحولها الروائي إلى مادة تحرر جغرافيا القضية الفلسطينية من كونها قضية شعب إلى قضية إنسانية هي قضية الهامش الذي تتكرر صورته في أنحاء العالم المضطهد.

تعددت الأصوات في عباد الشمس، اعتلاها صوت الحرب اليومية التي لا تنتهي، استعانت بها الكتابة بتفاصيلها لتبدع شخصيات متخيلة انحرفت من الدلالة الواقعية إلى الدلالة المجازية منحتها طاقة السرد الكثيفة لإنتاج ثلاث مستويات من الخطابات: خطاب الشارع الذي يصارع من أجل قوت أطفاله، وخطاب المثقف الذي يؤمن بحتمية التحرر من الكيان الإسرائيلي، وخطاب المرأة الفلسطينية المتشبثة بالأرض ويحلم العودة إلى فلسطين.

عندما كتبت سحر خليفة عباد الشمس، ردت عبر متخيلها السردى على سؤال طرحه المشككون في وجود فلسطين على الخريطة العربية: من هي فلسطين؟ وما تاريخ هذه الأرض المقدسة؟ ولماذا بالذات تم اختيار فلسطين لتنفيذ مشروع سياسي واقتصادي للقضاء على العنصر العربي المسلم.

استمدت سحر خليفة تجربتها الروائية من الشخصية الفلسطينية المكابرة واتكأت على التاريخي واليومي والفردي والجماعي لتشكيل هوية نضها الروائي الذي يستمد قوته وضعفه من قوة وضعف شخصياتها التي لم تلونها بالمساحيق والأقنعة. بل سلمتها قيادة مصيرها في رحلة البحث عن الوطن والهوية والذاكرة، وفي هذا السياق متعدد المرجعيات الثقافية تمت صياغة حلم العودة إلى الوطن في شكل رواية تؤمن بالإنسان والحرية وتسجل سردية مقاومة ثقافية تتأسس على إيقاع صاحب يأتي في شكل هجاء للعالم المنحط.

قائمة الإحالات:

- 1 سعد البازعي، هجرة المفاهيم، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1، 2021، ص98.
- 2 ينظر: رضوى عاشور، لكل المهجرين أجنحة، دار الشروق، مصر، ط1، 2019، ص18.
- 3 سعد البازعي، هجرة المفاهيم، ص99.
- 4 سحر خليفة، عباد الشمس، دار الآداب للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط4، 2008، ص160.
- 5 الثقافة والإمبرالية، إدوارد سعيد، تر/ كمال أبو ديب، دار الآداب، بيروت، ط4، 2014، ص10.
- 6 الرواية، ص9.
- 7 عبد الله إبراهيم، أعراف الكتابة السردية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، لبنان، ط1، 2019، ص146.
- 8 محمد بوعدة، سرديات ثقافية من سياسات الهوية إلى سياسات الاختلاف، منشورات دار الأمان، الرباط، ط1، 2014، ص16.
- 9 الرواية، ص407.
- 10 ينظر: نفسه، ص421، 422.
- 11 محمد بوعدة، سرديات ثقافية، ص17.
- 12 إدوارد سعيد، الثقافة والإمبرالية، ص58.
- 13 محمد بوعدة، سرديات ثقافية، ص41.
- 14 إدوارد سعيد، الثقافة والإمبرالية، ص58.
- 15 الرواية، ص91.
- 16 نفسه، ص81.
- 17 فاطمة كدو، الخطاب النسائي ولغة الاختلاف مقارنة للأنساق الثقافية. منشورات دار الأمان، الرباط، ط1، 2014، ص128.
- 18 الرواية، ص176.
- 19 نفسه، ص24-178.
- 20 نفسه، ص27.

- 21 نفسه، ص178..
- 22 نفسه، ص166.
- 23 محمد بوعزة، سرديات ثقافية، ص65.
- 24 ينظر: نفسه، ص48-91.
- 25 نفسه، ص31.
- 26 نفسه، ص30.
- 27 نفسه، ص84،85.
- 28 ينظر: عبد الله إبراهيم، المطابقة والاختلاف، بيروت، مؤسسة مؤمنون بلا حدود، ط1، ص17،16.
- 29 ينظر: محمد الشحات، سرديات المنفى الرواية العربية بعد عام 1967، دار أزمينة للنشر والتوزيع، الأردن، ط1، 2006، ص31.
- 30 إدوارد سعيد، الثقافة والأمبرالية، ص16.
- 31 راي أبو شهاب، الرئيس والمخاتلة خطاب ما بعد الكولونيالية في النقد العربي المعاصر. المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الأردن، ط1، 2013، ص253.
- 32 سحر خليفة، عباد الشمس، ص53.
- 33 نفسه، ص52.
- 34 محمد بوعزة، سرديات ثقافية، ص65.
- 35 إدوارد سعيد، الثقافة والأمبرالية، ص18.
- 36 سحر خليفة، عباد الشمس، ص344.
- 37 نفسه، ص396.

قائمة المصادر والمراجع:

المصادر:

- سحر خليفة، عباد الشمس، دار الآداب للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان. ط4، 2008.

المراجع:

- 1- إدوارد سعيد، الثقافة والإمبرالية، تر/ كمال أبو ديب، بيروت، دار الآداب. ط4، 2014.
- 2- رضوى عاشور، لكل المهجورين أجنحة، دار الشروق، مصر، ط1، 2019.
- 3- سعد البارعي، هجرة المفاهيم. المركز الثقافي العربي، البار البيضاء، ط1، 2021.
- 4- عبد الله إبراهيم، أعراف الكتابة السردية. المؤسسة العربية للدراسات والنشر، لبنان، ط1، 2019.
- 5- عبد الله إبراهيم، المطابقة والاختلاف، مؤسسة مؤمنون بلا حدود، بيروت، ط1، 2018.
- 6- فاطمة كدو، الخطاب النسائي ولغة الاختلاف مقارنة للأنساق الثقافية. منشورات دار الأمان، الرباط، 2014.
- 7- محمد الشحات، سرديات المنفى الرواية العربية بعد عام 1967، دار أزمينة للنشر والتوزيع، الأردن، ط1، 2006.
- 8- محمد بوعزة، سرديات ثقافية من سياسات الهوية إلى سياسات الاختلاف، دار الأمان. الرباط، ط1، 2014.